لمحات من الدين والمعتقد في الأمثال الجاهلية

الباحث

الأستاذ المساعد الدكتور مظفر هاشم

جامعة الأنبار – كلية الآداب

توطئة

طالما راودتني فكرة الكتابة في النثر الجاهلي، حيث لم يحض بالاهتمام الذي لاقاه الشعر على الرغم من موضوعاته المتنوعة وأساليبه المختلفة، ويبدو أن قلة المصادر المتداولة وندرة الأخبار الموثقة[١]، فضلا عن تعقيدات النصوص اللغوية[٢]، كانت السبب وراء عزوف الباحثين والدارسين عن خوض غمار هذا المعترك، ناهيك عن ضياع هوية النص نتيجة لتداوله عبر الزمن فأصابته آفة النحل والانتحال[٣]، وهو مؤشر طبيعي لغياب سلاسل الرواة وأسانيدهم عن هكذا نصوص، فنحن أمام مادة أدبية تحتاج للتوثيق ثم الدراسة؛ لذلك يجب على المتصدي لدراسة النثر تَوَخِّي الدقة في اختيار النص لتلافي الوقوع في شرك تحديد العصر من جهة، ومن جهة أخرى تجنب التباين في مفردات النصوص بين المصادر المختلفة.

وإن الكتابة في موضوع الدين والمعتقد تتطلب شيئاً من الحذر والتروي أيضاً؛ لما لهما من أثر على حياة الشعوب فهما الحلقة الأضيق إن لم تكن الأعسر فيها، وقد لقيا ضرباً من التحريف، ونوعاً من التجاهل في الشعر الجاهلي- وهو القدح المعلى والكعب الأعلى لدى العرب- عندما تغاضى الرواة عما لا يتلاءم مع الدين الإسلامي[٤]، فكيف بالنثر؟! وهو ما نجهل عنه الكثير وما وصل إلينا منه إلا النزر القليل وشاهدنا قول عبد الصمد

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام: ٤٠٩ وما بعدها.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ٤٣٤.
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٤٢٠ وما بعدها.
(٤) ينظر في الأدب الجاهلي: ٨٠، الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٣٧٢ وما بعدها، وقد ناقش هذا الرأي عدد كبير من الباحثين.

بن الفضل الرقاشي: «إ ن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره»[1].

واختيار الأمثال مادة للبحث ليس بالأمر اليسير ولا الهين، فهي تعكس حياة الأمم حيث تتجلى فيها حضارتها، ونستشف منها تجاربها، وتنبع أهميتها من نقائها عبر الزمن دون أن يكدر صفو لغتها شيء، أو يزيف نقل عباراتها أحد، فظلت محركاً لحياة الناس تلامس عمق الوجدان، وتؤثر في صيرورة الواقع، فالجدلية في المثل لا تنحصر بألفاظه المقتضبة والغامضة – التي قد ترقى إلى الألغاز والأحاجي نتيجة تكثيف عباراته ومعانيه– فحسب، بل يأخذ الأمر بأيدينا لأبعد من ذلك، لما يعكسه من توهج عبر الزمن، فهو حلقة الوصل بين فعل ماض وحدث حاضر وربما مستقبل آت، فالمثل يتردد صداه كلما سنحت الفرصة لذلك، وهو سر خلوده على رأي ابن عبد ربه في قوله عن الأمثال: «هي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسرِ شيء مسيرها ولا عَمَّ عمومها، حتى قيل: أسير من مثل»[2].

وبعد ... فإننا أمام موروث ثقافي يكتنز بين ثناياه فنونا نثرية مختلفة تتجسد في الخبر أو القصة التي ولدت من رحم المثل، وكذلك الحكمة والوصية التي يصبو إليها القائل، ويتعدى الأمر هذا وذاك إلى السجع – أو الموسيقى الداخلية إن صح التعبير– الذي يلازم عبارته على قصر بعضها فضلاً عن لغته الثرة. وهو نشاط ذهني أيضا نلمس ملامحه في إفراد ابن قيم الجوزيه خاصية العقل للمثل بقوله: «الأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصية العقل ولبه وثمرته»[3]، فالقدرة على استحضار المثل المناسب لحظة وقوع الحدث

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٩٤.
(٢) العقد الفريد : ٣/ ٢.
(٣) أعلام الموقعين: ١/ ٢٩١.

عن طريق إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه على رأي ابن رشيق[١]، لا تتأتى لأي إنسان.

وقبل الولوج في الموضوع نقف برهة عند الدلالة المستوحاة من لفظة (مثل) في المصادر التراثية، إذ الطابع العام للمعاجم اللغوية عن هذه اللفظة هو التكرار، فجميعها تعطي التفسير نفسه مع اختلافات بسيطة وتنوعات طفيفة من معجم لآخر بالزيادة أو النقصان وهي تفضي إلى مفاهيم يختلط فيها المحسوس والمجرد: مثل «التسوية والمماثلة، الشبه والنظير، الوصف والإبانة، الآية، الانتصاب، التصوير، التنكيل، الجهد، الحجر، الحجة، الحذو، الحديث، الصفة، الخبر، الذهاب، الزوال، العبرة، العقوبة، الفراش، الفضيلة، القالب، القصاص، المقدار، المنقور، الند، النمط»[٢]، وكتب الأدب تتفق مع المعاجم اللغوية في الدلالة غير أن هناك فارق طفيف يعود إلى خروجها من أفق اللغة إلى مدى الاصطلاح، فالمثل عندهم: صيغة متوارثة مقتضبة لغة مكثفة مضمونا تطلق في حدث مماثل لموقف سالف[٣]، وليس ببعيد عنهما ما جاء في كتب الأمثال التي انصبت عناية أصحابها على وضع مقومات المثل لئلا يختلط فيه فن أخر من فنون النثر ولاسيما الحكمة[٤].

(١) ينظر العمدة: ١/ ٢٨٠.

(٢) ينظر جمهرة اللغة: مادة (مثل)، تهذيب اللغة: مادة (مثل)، مقاييس اللغة: مادة (مثل)، الصحاح: مادة (مثل)، أساس البلاغة:مادة (مثل)، لسان العرب: مادة (مثل)، القاموس المحيط: مادة (مثل)، تاج العروس: مادة (مثل)، محيط المحيط: مادة (مثل).

(٣) ينظر العقد الفريد: ٣/ ٢، صبح الأعشى: ١/ ٢٥٩، المزهر: ١/ ٤٨٦، ٢١٢.

(٤) ينظر كتاب الأمثال: ٣٤، جمهرة الأمثال: ١/ ٥-٦، مجمع الأمثال: ١/ ٧، المستقصى: ١/ أ- هـ.

الدين في الأمثال الجاهلية

من البدهي أن نعطي فكرة موجزة عن الحياة الدينية في المجتمع الجاهلي، قبل أن نسبر أغوار هذا الموضوع. لقد حرص معظم العرب ومنذ القدم على إقامة العلاقة الروحية في أبهى صورها وأحسن طقوسها، مقرين بوجود الله (سبحانه تعالى)، فمنهم من وجد ضالته في الشرك – فوضعوا لله (سبحانه وتعالى) أندادا، وسيلة تقربهم إلى الله (سبحانه وتعالى) زلفى- وهم الفريق الأول، بيد أنهم انقسموا في شركهم طرائق قددا، شأن الأمم البدائية كلها، فمنهم من خضع لعناصر الطبيعة يتوسل إليها في كسب الخير ودفع الشر[١]، وبعضهم عكف على عبادة الحجارة على مختلف مسمياتها[٢]، والبعض الآخر توسم في الغيبيات أمورا خارقة[٣]، والفريق الثاني اعتنق التوحيد بشكل مباشر، فقد سبقت الإسلام إلى الجزيرة العربية أكثر من دعوة صادقة للتوحيد على لسان عدد من الأنبياء والرسل، فتركوا أثارهم شاخصة لمن أراد اقتفاء خطاهم، وبصماتهم واضحة للعيان إلى يومنا هذا، فها هم الأحناف ورثة ديانة نبي الله إبراهيم (عليه السلام) يجوبون أرجاء الجزيرة العربية يدعون الناس لوحدانية الله (سبحانه وتعالى) وحسب ما ورد ذكره في القرآن الكريم[٤]، وليس ببعيد عنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقد

(١) ينظر البيان والتبيين: ٣/ ٦، الحيوان: ٤/ ٤٧١، طبقات الأمم: ٤٣.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٣٧٠ وما بعدها.

(٣) أمية بن الصلت حياته وشعره: ٣٦٨.

(٤) القران الكريم: البقرة: الآية ١٣٥، آل عمران: الآيتان ٦٧،٩٥، النساء: الآية ١٢٥، الإنعام: الآيتان ٧٩،١٦١، يونس: الآية ١٠٥، النحل: الآيتان ١٢٠،١٢٣، الحج: الاية: ٣١، البينة: الآية: ٥.

عرف طريقهما للجزيرة العربية منذ وقت مبكر، فالأولى اعتمدت الهجرة والتجارة[١]، في توسيع رقعتها الجغرافية، وظلت مغلقة على نفسها ومحصورة بمجتمعها لأنهم كانوا ومازالوا يعدون نفسهم شعب الله المختار. أما الثانية فقد وصلت الجزيرة عن طريق التبشير وهو لا يختلف كثيراً عن نشر الدعوة الإسلامية، لذلك نجد لهم جذورا في قبائل العرب التي تنصرت، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، بنو أسد بن عبد العزى من قريش، وبنو إمريء القيس بن زيد من تميم، وبنو تغلب من ربيعة، وطيّء، ومذحج، وبهراء، وسليم، وتنوخ، وغسان، ولخم[٢]. وهناك ألوان أخرى من العبادات لا يتسع المقام لذكرها.

والآن، وبعد هذا العرض المقتضب عن العبادات في المجتمع الجاهلي، نطل إطلالة هادئة في كتب الأمثال على ما يتعلق بموضوعنا، فنرصد عددا لا بأس به من الأمثال المتضمنة بين ثناياها ملامح الدين بطقوسه وعباداته، وعندما نتحرى قائليها يظهر لنا ثلة من الأحناف في عدد منها، وهي أمثال أقرب ما تكون إلى المناخ الإسلامي منها إلى أجواء الجاهلية، وفي مقدمتهم عامر بن الظرب العدواني، وهو من حكماء العرب المشهورين، و الذي أعطى حكم الخنثى وأقره الإسلام فيما بعد، ويتجلى ذلك في دعوته لابنته، لما أسنَ أن تقرع بالعصا إذا هو فهَ، وجار عن القصد، وكانت من حكيمات العرب(٣)، وقال المتلمس في ذلك[٤]:

(١) ينظر معجم البلدان: مادة (مدينة)، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٩٨.

(٢) ينظر المعارف: ٦٢١، فتوح البلدان: ٧، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٩٨ وما بعدها، المفصل: ٦/ ٥٨٢.

(٣) ينظر البيان والتبيين: ٣/ ٣٨.

(٤) ديوانه: ٢٦

لـذي الحلـم قبلَ اليـوم مـا تُقْـرَعُ العَصَا وَمَـا عُلِّـمَ الإنسـانُ إلا ليعْلَـمَا

فالمثل: «رُبَّ زَارِعٍ لِنَفْسِهِ حاصِدٌ سِوَاهُ»[1]، يكشف عن إيمان الرجل بالله (سبحانه وتعالى)، واستسلامه لقضائه، وانصياعه لمشيئته، وإن لم يصرح بذلك مباشرة، إلا أننا يمكننا الاهتداء إليه بردَ الأمور إلى الغيب المعقود بيد الله (سبحانه وتعالى)، ونظرة متأنية لمناسبة قول المثل وموضعه، وكان قد ورد في كلمة ألقاها في قومه عندما طلب إليه صعصعة بن معاوية خطبة ابنته، حيث نجد الكلام كله يفوح إيمانا وتوحيدا، إذ يقول: «ولَكنْ مَنْ خُطَّ له شَيءٌ جَاءَهُ،---، ولَولا قَسْمُ الحُظوظِ على غيرِ الحُدودِ ما أدركَ الآخرُ من الأولِ شيئاً يعيشُ به، ولكنَ الذي أرسلَ الحياةَ أنبتَ المرعى ثم قسَمه أُكُلاً لكلِ فم بقلةٌ ومن الماءِ جرعةُ»[2] ويسترسل الرجل ملمحاً خفية ومشيراً ضمناً لما لا تدركه أبصارهم في قوله: «إنكمْ ترونَ ولا تعلمونَ، لن يرى ما أصفُ لكُمْ إلا كلُ ذي قلبٍ واعٍ، ولكلِ شيءٍ راعٍ، ولكل رزقٍ ساعٍ، إما كَيْسٌ وإما أَحْمَقٌ،---، لو كان يُميتُ الناسَ الداءُ لأحْياهُمْ الدواءُ،---، حتى يرجعَ الميتُ حيَا، ويعودُ لاشيءَ شيئاً، ولذلك خُلِقَتْ الأرضُ والسماءُ»[3]. فالرجل يؤمن إيماناً راسخاً لا يقبل الظن بأن شؤون الحياة يوجهها من خلقها بحكمة وعدالة، لاتصل إليها يد الإنسان لتعبث بها وفق شهواتها ونزواتها، فالمتأمل لهذه العبارات يجدها تفوح حكمة مستلهمة عن دراية في خفايا الأمور.

وتتجلى لنا في المثل «أَبْلَغُ مِنْ قُسٍ»[4] شخصية قُس بن ساعدة الأيادي، وهو من

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣١٣.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٣١٣.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٣١٣.
(٤) مجمع الأمثال: ١/ ١١١.

المبشرين بالحنفية والمناهضين لعبادة الأصنام، وكان من حكماء العرب أيضا[١]، والمثل مأخوذ من صدر بيت للأعشى الكبير وفيه يقول[٢]:

وأَبْلَغُ مِنْ قُسٍ، وأَجْرَى مِنِ الَّذِي بِذِي الغِيلِ مِنْ خفَانَ أَصْبَحَ خَادِرا

فلفظة «أبلغ» هنا تتجاوز حدود البلاغة التقليدية إلى حسن التدبر في الأمور، وعمق التفكر في الكون، فما يراه قس لا يراه سواه من الناس يومها، وإذا تمثلنا بخطبته وهو يعظ الناس في عكاظ وجدناه يستصغر أمر الدنيا ويستهين بشأنها، ويدعو الله (سبحانه وتعالى) في قوله: «أَيُها الناسِ اسْمعُوا وعُوا، وإذا وعيتُمْ فانْتَفِعُوا، إنَهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ، ومَنْ ماتَ فاتَ، وما هو آتٍ آتٍ، ---، إلا أنَ أبلغَ العضاتِ، السيرَ في الفلواتِ، والنظرَ إلى محلِ الأمواتِ، إنَّ في السماءِ لخبراً، وإنَّ في الأرضِ لعبراً،---، مالي أرى الناسَ يذهبونَ فلا يرجعون، أرضَوا بالمُقامِ فأقاموا أم تُرِكُوا هناك فنامُوا»[٣]، وبغض النظر عن اختلاف الروايات حول النص، إلا أنها تكاد تتفق على المضمون، وهذا يفسر سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم وفد بكر بن وائل عن الرجل، وهو يتذكر خطبته بعكاظ ويرددها أمامهم، وكذلك الحال مع أبي بكر رضي الله عنه[٤].

وجاء في المثل «كُلُّ شَاةٍ بِرِجلِهَا مُعَلَّقَةٌ»[٥] على لسان وكيع بن سلمة بن زهير بن أياد، وكان ولي أمر البيت بعد جرهم، وقد بنى صرحاً بأسفل مكة، ---، وجعل في الصرح سلماً، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله (سبحانه وتعالى) وكان ينطق بكثير من الخبر،

(١) ينظر البيان والتبيين: ١/ ٥٢.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ١١١، وقد أخل بالبيت الديوان.
(٣) البيان والتبيين: ١/ ٣٠٨-٣٠٩.
(٤) ينظر المصدر نفسه: ١/ ٣٠٨.
(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ١٤٢.

وكان علماء العرب يزعمون أنه صديق من الصديقين[1]، ومن كلامه «زَعمَ ربُّكُمْ ليجزينَّ بالخيرِ ثواباً، وبالشرِّ عقاباً، إنَّ مَنْ في الأرضِ عبيدٌ لِمَنْ في السماءِ،هلكتْ جرهُمُ ورُبِلَتْ إيادُ»[2]، فلما حضرته الوفاة جمع قومه إياد وقال لهم: «إسْمَعُوا وصيتي، الكلمُ كلمتان، والأمرُ بعدَ البيانِ، مَنْ رَشدَ فأتَبعوه، ومَنْ غَوى فارْفضُوه، وكلُّ شاةٍ برجلِها مُعلَّقة»[3] فذهبت مثلا، وإذا ما أمعنا النظر بالسياق العام للمثل، فضلاً عن مناسبته، تبين لنا بما لا يقبل الشك، أنه يؤكد حقيقةً راسخةً يلتقي عندها الموحدون، ألا وهي الإيمان باليوم الآخر وكل ما يترتب عليه من حساب، فالصورة على الرغم من بساطتها وواقعيتها إلا أنها أبلغ دلالة لما سيواجه الإنسان ذلك اليوم، وأصدق تعبيراً لما سيؤول إليه أمره، فهو أشبه بالشاة وقد سلخت وعلقت فلا تقوى الدفاع عن نفسها، بل هي أضعف من ذلك، فلم يبق للمرء سوى عمله فقد رفع القلم وجف الحبر. وهذا يدعم الأخبار المتواترة عن دخول الرجل في دين الأحناف، فضلاً عن أنه من حكام الجاهلية[4].

ويميط المثل «لن يهلكَ امرؤ عرف قدره»[5] اللثام عن حكيم الجاهلية، وقاضيها دون منازع، وسيد من ساداتها، ألا وهو أكثم بن صيفي، وكانت كلمته مسموعة بين أفراد القبائل[6]، وقد ورد المثل في وصية كتب بها إلى طيء، وهي عند المفضل خمسة

(١) ينظر المصدر نفسه: ٢/ ١٤٢ وما بعدها.
(٢) البيان والتبيين: ٢/ ١٠٩-١١٠.
(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ١٤٣.
(٤) ينظر المحبر: ١٣٦، بلوغ الإرب: ٢/ ٢٦٠.
(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ١٨٢.
(٦) ينظر البيان والتبيين: ١/ ٣٦٥، نهاية الإرب: ٦/ ٨٠، ١٥/ ٤٠٧، أيام العرب في الجاهلية: ١٢٤.

وثلاثون مثلاً في نظام واحد[1]، نرصد منها قوله: «أوصيكُمْ بتَقْوى الله، وصلةِ الرحم، وإيَاكُمْ ونكاحَ الحمْقاءَ،---، ولن يهلكَ أمرؤٌ عرفَ قدرَهُ، والعدمُ عُدْمُ العقلِ لا عدَمُ المالِ، ولرجلٍ خيرٌ من ألف رجلٍ،---،»[2] وهذه الأمثال بغالبيتها تفصح عن مناخ الأحناف، وهو مناخ يتغلغل في جوانب الحياة المختلفة، ومنها الجانب الاجتماعي، فالمثل يفضي إلى مفهوم احترام الذات وعدم الانجرار وراء ما يحط من قدر المرء وينزل من مكانته، إذ الطابع العام للمثل أخلاقي بحت، يندرج في باب الحث على القيم الرفيعة في المجتمع، وهي قيم كثيراً ما ردد صداها الأحناف في كلامهم، وحث عليها الإسلام فيما بعد، فكلاهما يضيء من سراج واحد.

ونمضي قدما، نقتفي آثار الأحناف في الأمثال، فإذا بهذه الآثار تصادفنا في لغة الناس على اختلاف مشاربهم، فتراها في مفرداتهم اليومية وتعابيرهم الاجتماعية، وهذا إن نم على شيء إنما ينم عن مدى شعبية الأحناف في مجتمع لم يجد بُداً من التعامل معهم على الرغم من التناقض في العبادة معهم، فهم ليسوا منبوذين بسبب تسفيههم عبادة الأصنام، وهو المفترض في هذه الحال، بل لهم حظوة كبيرة، يعتد برأيهم، ويأخذ بأحكامهم، ولهم الصدارة في قبائلهم، بل في المجتمع الجاهلي عامة.

فالمثل «قد وقَعَ بَيْنَهُمْ حَرْبُ داحِسٍ والغَبْرَاءِ»[3]، يكشف النقاب عن الربيع بن زياد العبسي، أحد فرسان هذه الحرب، وهو متأثر بجو الأحناف، إذ يقول[4]:

(١) ينظر مجمع الأمثال :٢/ ١٨٣. وقد وردت السين في داحس بتنوين الكسر في المصدر والصواب الفتح داحسَ.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ١٨٢-١٨٣.

(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ١١٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢/ ١١٤، وهي (لنفسي) في أيام العرب في الجاهلية: ٢٠٥.

أقـولُ ولمْ أملـكْ لقيـسٍ نصيحـةً أرى مـا يـرى واللهُ بالغيـبِ أعْلَـمُ

إنَّ عجز البيت ينطوي على لغة حنيفية بحتة، فنعت الله (سبحانه وتعالى) بأنه عالم الغيب، وهو مستقى من معجم الأحناف، ومما يضفي نوعاً من الشرعية على كلامنا، هو عدم اعتناق الربيع الحنفية، ودليلنا ما تحدثت به الأخبار في كتاب الأغاني عن معاقرته الخمرة[1]، ومن هنا نتبين تأثير الأحناف في الذهنية الجاهلية.

ويقودنا المثل «ما وراءكَ يا عِصَام؟»[2] للحارث بن عمرو ملك كندة، وقد كلف امرأة من كندة يقال لها عصام، ذات عقل ولسان، وأدب وبيان، بتقصي خبر ابنة عوف بن ملحم الشيباني، وكان بلغه جمالها وكمالها، وقوة عقلها، فلمَّا عادت إليه قال لها: «ما وراءكَ يا عِصَام؟»، فأخبرته ما كان من أمر الفتاة بكلام رددت فيه لفظ الجلالة في أكثر من موضع، ومنها قولها: «ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر، ---، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما، ---، والله يخير لك»[3]، وما كان القسم بلفظ الجلالة يحدث لولا تداوله في أيمانهم، فلا المقام ولا المقال يسمحان لهذه المرأة الحنث في اليمين في حضرة الملك، وبذلك تكون عصام غايتنا المنشودة من المثل.

ويأتي المثل «مَنْ يَرَ يوماً يُرَ بهِ»[4] في سياق الدلالة عينها، وهي دلالة بيان أثر الحنفاء في لغة الناس، فقصة المثل تأخذنا إلى كحلب بن شؤبوب الأسدي، وكان في صراع دائم مع حارثة بن لأم الطائي، فلما وقع الأول في قبضة الثاني أسيراً، فقال له حارثة: إن كنت أسيراً فطالما أسرت، فأرسل المثل، ثم حصل سجال بين حوذة بن عترم

(١) ينظر الأغاني: ١٧/ ١٣٠.
(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٦٢.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٣٠٤.

الطائي، وكان كحلب قتل والده، فقال حوذة:

إلى الله أشْكُو أنْ أؤوبَ وقَدْ ثَوَى قتيلاً فأوْدَى سَيِّدُ القَوْمِ عِتْرِمُ

فأجابه كَحلب[1]:

فأقْسِمُ بالبَيْتِ المُحرَّمِ مِنْ مِنَى أليَّةَ بِرٍّ صادِقٍ حينَ يُقْسِمُ

ومن المفارقة، أن كلا الرجلين ليس بمتحنفٍ، فالمظان تذكر أنهما يعتمدان الإغارة مورد رزق لهما، وكلاهما لا يتوانى عن سفك الدماء، ومع هذا فإنهما استعملا لغة الأحناف.

ونلحظ في المثل «أنْدَمُ مِنَ الكَسَعِيِّ»[2] شخصية رجل من بني كسع، قيل: هو محارب بن قيس، وقال آخرون إنه من بني محارب، وأسمه غامد بن الحارث[3]، وأيّاً كان الاسم، فما يعنينا اللغة التي يستعملها، وهي لغة تجاوزت لغة الحنفاء لتصل إلى لغة تعبر عن مصطلحات قرآنية بعينها، فهو يقول[4]:

أعوذ بالله العزيز الرحمن من نكد الجدِ معاً والحرمان

وفي موضع آخر يقول[5]:

لا بارك الرحمن في رمي القتر أعوذ بالخالق من سوء القدر

وهذه اللغة إن نجت من عبث أيدي الرواة، وأيقنا أن الرجل لم يكن حنفياً، وهو كذلك حسب الخبر، فَفي هذه الحال يمكن القول إنّ لغة الأحناف كان لها سطوة على ألسن الناس يومها، فتراهم يستخدمون المصطلح بشكل صريح وفي الموضع الصحيح.

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٣٤٨.
(٣) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٤) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٣٤٩.

هذا باختصار ما انتهى إلينا من كتب الأمثال في الجاهلية عن حال الأحناف، وهو يؤكد حقيقة دامغة مفادها أن لغتهم دخلت في أحاديث الناس، وهذا بدوره يفضي إلى أمر لا يقبل اللبس عن حجم أثر فكرهم وعقيدتهم على المجتمع الجاهلي، ويظهر لنا مدى زيف الصورة عن انكفائهم على أنفسهم، وانكماشهم في بيئتهم، وتقوقعهم على ذاتهم، وسط موج صاخب من الطغيان والكفر.

وقبل أن نغادر الجوَّ العام للتوحيد في شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام من غير أهل الكتاب، نقف لبرهة أمام إشارات عامة، ودلالات خفية عن آثار ذلك التوحيد، فنرصد منها المثل «أَصَابَتْهُمْ رَاغِيَةُ البَكْرِ»[1] والبكر يعني بها ناقة ثمود، وهم قوم عصوا أمر ربهم، وعقروا ناقة النبي صالح، والتي وصى بها الله (سبحانه وتعالى) على يد أشقاهم قدار بن سالف، والملقب بأحمر عاد وفيه يردد المثل «أَشْأَمُ مِنْ أَحْمَرِ عادٍ»[2]. والمثل «طارتْ بِهُمْ العَنْقاءُ»[3] يسرد معجزة نبي أهل الرس حنظلة بن صفوان وكان استنصره قومه ليدعو ربه كي يخلصهم من طائر ينقض على أولادهم وجواريهم، فدعا ربه ان يسلط عليه آفة، فاستجاب له وأرسل عليه صاعقة أحرقته[4].

والآن نقلب الأمثال بحثاً عن الديانتين السماويتين من أصحاب الكتاب في بلاد العرب اليهودية والنصرانية، ولا تسعفنا المصادر عنهما إلا بالنزر القليل، وتكاد هذه الأمثال تكون غير ذات جدوى؛ لأنها جاءت على دلالة هاتين الديانتين في قصتها، أو

(١) كتاب الأمثال: ٤٤.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٣٧٩.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤٢٩.
(٤) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

يجعلنا سياق المثل نستشفها دون أدنى إشارة، فالمثل «إنَ غداً لناظره قريب»[١]، يروي قصة طويلة عن سبب تنصر النعمان وأهل الحيرة أجمعون[٢]، والمثل «أطعمتك يد شبعت ثم جاعت، ولا أطعمتك يد جاعت ثُمَّ شبعت»[٣] يكتسب نصرانيته من قائلته الحرقة بنت النعمان بن المنذر، وأسمها هند، وهي صاحبة دير معروف في الحيرة [٤]، أما المثل «كحماري العبادي»[٥]، يرتبط بالعباد وهم قوم من أفناء العرب كانوا نصارى ومنهم عدي بن زيد العبادي، والمثل الأخير «فهو أحسن من الدُمية، ومن الزُون»[٦] يتعلق بالبيعة للنصارى وهي الكنيسة[٧].

أما العبادات الأخرى غير السماوية، فما يسترعي الانتباه، ويثير الدهشة، هو قلة الأمثال التي تتحدث عنها، فبعد الرصد والتحري تمكنا من تأشير هذه الطائفة من الأمثال، فالمثل «أحسن من الدُمية، ومن الزُون»[٨]، والدمية والزُون صنمان، والثاني ينطق بالفارسية باللفظة نفسها ولكن بشم الزاي[٩]، ويفضي المثل إلى حقيقة مفادها اهتمام العرب بالأصنام، فهم حريصون على حسن الصنعة وكمال الجودة حتى أصبحت مثالا يحتذا به عند المقارنة في الوصف، أليس هو الإله المعبود؟ والرب المنشود؟ وصيغة

(١) المصدر نفسه: ١/ ٧٠.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ١/ ٧٠-٧١.
(٣) المصدر نفسه :١/ ٤٣١.
(٤) ينظر معجم ما أستعجم: مادة (حرق)، معجم البلدان: مادة (حرق).
(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ١٦١، المستقصى: ٢/ ٢١٥.
(٦) المصدر نفسه: ١/ ٢٢٧، المستقصى: ١/ ٦٥،٦٦.
(٧) ينظر لسان العرب: مادة (بيع).
(٨) مجمع الأمثال: ١/ ٢٢٧.
(٩) ينظر لسان العرب : مادة (زون).

التفضيل التي جاء المثل عليها خير دليل على كلامنا، وهذا كله يرتبط بالشكل فحسب. أما المضمون فالمثل «لقد ذُلَ من بالت عليه الثعالب»[١]، يعطينا انطباعا عن ضعف الإيمان عند العربي الجاهلي، وعدم اكتراثه لأمر دينه، حيث لا يجد حرجاً من التحول في عبادته، فهو هوائي الرأي، متقلب المزاج، و قصة المثل تؤكد بما لا يقبل اللبس هذه الحقيقة، وفيها أن رجلاً من الأعراب كان يعبد صنماً، فنظر يوما إلى ثعلب جاء حتى بال عليه فقال[٢]:

أربٌ يبول عليه الثُعلبان برأسه لقد ذُلَّ من بالتْ عليه الثَعالبُ

والمثل «أَفْقَرُ مِنْ ودٍ»[٣]، يتعرض للصنم ود[٤]، وفيه إشارة صريحة ومباشرة له، ويبدو إنَّه إله مهاب الجانب، عظيم الشأن، حيث تشير الدراسات إلى أن ودا اسم إله القمر في الديانات المعينية القديمة ومعناه الحب، وكان هذا الإله يلقب بالأب، ولقد ورد اسمه في النقوش المعينية والسبئية بمفرده وفي تركيب أسماء الأفراد وقد أقيمت باسمه بعض المعابد في الجوف، وقد وصفه مالك بن حارث بقوله: «كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر أي نقش عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وقصعة فيها نبل يعني جعبة»، وقد اتخذته قبيلة كلب بدومة الجندل إلاها لها [٥]، وورد ذكره في القرآن الكريم[٦].

والمثل «الحَرْبُ سِجَالٌ»[٧] يخفي وراءه معبود قريش في الجاهلية «هبل»، فهذا أبو

(١) جمهرة الأمثال: ١/ ٤٦٥، مجمع الأمثال: ٢/ ١٨١،
(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ١٨١.
(٣) المستقصى: ١/ ٢٧٤.
(٤) بنظر كتاب الأصنام: ٥٦.
(٥) ينظر كتاب الأصنام: ٥٦.
(٦) ينظر سورة نوح: آية ٢٣.
(٧) مجمع الأمثال: ١/ ٢١٤

سفيان في يوم أحد، بعدما وقعت الهزيمة على المسلمين، نجده يهتف «أعلُ هُبَلٌ، أعلُ هُبَلٌ»، ويدخل في حوار مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونقتطف منه موضع شاهدنا في قول أبي سفيان: «إنَّهُ يومُ الصمْتِ، يوماً بيوم بدرٍ، وإنَّ الأيامَ دولٌ، وإنَّ الحربَ سجالٌ»[١]، وهبل صنم، تزعم الأخبار أن عمرو بن لحي الخزاعي قد جلبه من مآب من أرض البلقاء، أو من هيت من أرض الجزيرة[٢]، ويظن جرجي زيدان أن موئله فينيقيٌّ أو كنعانيٌّ[٣]، في حين يظنُّ محمود الحوت أنَّ موئله آرامي[٤]. ونكتفي بهذا القدر من الأمثال ضمن موضوع عبادة الأصنام، وجميعها تدور في الإطار نفسه[٥].

وثمة إشارات إلى عبادات أخرى، منها عبادة النجوم والكواكب، وهو ما ورد ذكره في المثل «أتْلَى مِنَ الشِّعْرَى»[٦]، وهي الشعرى العبور، اليمانية، فهي تكون في طلوعها تلو الجوزاء، وتتبعها لذا يسمونها كلب الجبار، والجبار الجوزاء[٧]، وهي معبودة قيس[٨]، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله: تعالى «إنَه هو ربُ الشِعرى»[٩]. وفي السياق

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٢) ينظر كتاب الأصنام: ٨، السيرة النبوية: ٣/ ٩٩.
(٣) ينظر أنساب العرب القدماء: ٧١-٧٣.
(٤) ينظر في طريق الميثولوجيا عند العرب: ٧٧.
(٥) ينظر جمهرة الأمثال: ١/ ٦٧، ١/ ٤٩١، ٢/ ١١٦، مجمع الأمثال: ١/ ٢٩٩، ٢/ ٥٧، ٢/ ١٠٢، المستقصى: ٢/ ١٠٥، ٢/ ١٩١.
(٦) جمهرة الأمثال: ١/ ٢٨١، مجمع الأمثال: ١/ ١٤٨، المستقصى: ١/ ٣٥.
(٧) ينظر مجمع الأمثال: ١/ ١٤٨، ٢/ ٣٥٤.
(٨) ينظر الحياة العربي من الشعر الجاهلي: ٤٢٠.
(٩) سورة النجم: الآية ٤٩.

نفسه يأتي المثل «أنكد من تالي النَّجم»[١]، وفي مضان الأخبار الكثير عن عبادة النجوم[٢]، والمثل «طالَ الأبَدُ على لُبَدٍ»[٣] ينتمي إلى مذهب الدهريين، وهم قوم ينكرون فكرة البعث، ويرفضون مبدأ الحساب، ويرون أن العالم معقود بيد الدهر[٤]، وفيهم قال تعالى: «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»[٥]، وقصة المثل تتحدث عما كان من أمر لقمان بن عاد وقد عمَّر عمر سبعة أنسر، كل واحد منها عاش خمسمائة سنة، أي ما يقارب ثلاث ألاف وخمسمائة سنة، وآخرها أطلق عليه لبد وفي لسانهم يعني الدهر، وقد مات لقمان بموت النسر الأخير[٦]، والمعنى ذاته يتجلى في المثل «أخْنَى عليْها الَذي أخْنَى على لُبَدٍ»[٧]، وكذلك المثل «أكْبرُ مِنْ لُبَدٍ»[٨].

هذا ما كان من العبادات في العصر الجاهلي، والآن نغادرها صوب الطقوس الدينية الملازمة لتلك العبادات، فقد حرص العربي على تأديتها ليتقرب بها إلى الإله درجة، بغض النظر عن دينه أو معتقده، وفي طليعتها الحجُّ، فالحجُّ من الشعائر الدينية القديمة المعروفة عند الساميين، فقد كانوا يعتقدون أن للآلهة بيوتاً يستقرون فيها، إذا فلابد والحال هذه من شد الرحال نحو تلك البيوت للتبرك بقاطنيها، و الإقرار لهم بالخضوع، بغية

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٥٤،
(٢) ينظر طبقات الأمم: ٤٣.
(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٤٢٩.
(٤) ينظر طبقات الأمم: ٤٤.
(٥) سورة الجاثية: الآية ٢٤.
(٦) ينظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٢٩-٤٣٠.
(٧) المصدر نفسه: ١/ ٢٤٣.
(٨) المصدر نفسه: ٢/ ١٧٠.

مساعدتهم في أمور الدنيا[١]، ولغرض توضيح الصورة في الأمثال المعنية بهذا الطقس، وجب علينا التعامل معها بدقة متناهية، وحرفية عالية، لرفع الضبابية عنها، ولاسيما أن بعض طقوس الحج عند العرب في الجاهلية قريبة من طقوس الإسلام.

فالمثل «آمَنُ مِن حَمَام مَكَّةَ»[٢] يشير بشكل صريح إلى حرمة مكَّة وقدسيتها في نفس العربي الجاهلي، ولا نغالي إن قلنا: أن براءة الحمام، فضلا عن عشقه للسكون والهدوء، يمكن أن يفضيان إلى معاني الاطمئنان والسلام في النفس البشرية، وبالتالي تكتسب مكة هذه المعاني، وهي نتيجة طبيعية؛ لأن العرب كانوا يعمدون للحج في أشهر معلومات يتأبون فيها الغزو وسفك الدماء وكل عمل مشين[٣]. يقول النابغة الذبياني[٤]:

والمؤمُن العَائذاتُ الطَيْرِ يَمْسحُهَا رُكْبَانُ مكَةَ بين الغيل والسَّنَدِ

والمثل « خُذْهُ ولو بقُرْطَي مَارِيَةَ»[٥] يأتي في سياق مكانة مكة عند العربي ولاسيما بيت الله الحرام الكعبة، ومارية هي بنت ظالم بن وهب، وأختها هند الهنود إمرأة حجر بن آكل المرار الكندي، يقال: إنَّها أهدت الكعبة قرطيها وعليهما درتان كبيضتي حمام لم ير الناس مثلهما، ولم يدروا ما قيمتهما[٦]. فمنذ أن وضع إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قواعد البيت، والعرب تعظمه روحيا وماديا بتقديم كل غال ونفيس.

أما المثل «إنَّكَ خيرٌ مِنْ تفاريقِ العَصَا»[٧] يتناول إحدى شعائر الحج، ألا وهو موضعي

(١) ينظر المفصل: ١/ ٣٤٧.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٨٧.
(٣) ينظر أمالي القالي: ١/ ٥-٦، بلوغ الإرب: ٣/ ٩٦.
(٤) ديوانه: ٢٠.
(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٢٣١.
(٦) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٧) المصدر نفسه: ١/ ٢٧.

الصفا والمروة وما لهما من منزلة في نفس العربي، جعلته لا يتردد في القسم بهما، وهو ما عمدت إليه غنيَّة الأعرابية في موضع المثل من أرجوزتها إذ تقول[١]:

أحلفُ بالمروةِ حقًا والصَّفا أنَّك خيرٌ من تَفارِيق العَصا

بينما المثل « رُبَّ أكلةٍ تَمْنَعُ أُكْلاتٍ»[٢] يدخل في إطار خدمة الحجيج، وهو واجب مقدس، وعمل مبارك، تصدى له سيد بني عدوان عامر بن الظراب في إكرام الناس في الحج حيث كان يدفع الناس إلى الطعام دفعا، مما أثار حفيظة أحد ملوك الغساسنة[٣]، فحتى الطعام في مكة له نكهته الخاصة، يتذكرها الحجيج سنوات وسنوات، وذلك ليس لطبيعته المادية، وإنما لقدسية المكان الروحية عند العرب.

والنذور إحدى تلك الطقوس، تجعل الإنسان يشعر بالطمأنينة إزاء ما يعبد؛ لأنها تؤكد حسن العلاقة المتبادلة بينهما، فهو يقدم لها الطاعة والولاء طمعا منه بإعانتها في الملمات والنوائب، وهي على أنواع فمنها ما هو مادي والآخر معنوي[٤]. والواقع أن كتب الأمثال عنيت بالنذور المادية وأغفلت النذور المعنوية، فالمثل «أولُ الصَيَّدِ فَرْعٌ»[٥]، ورد أن «الفرع: أول ولد تنتجه الناقة، كانوا يذبحونه لآلهتهم يتبركون بذلك، وكان الرجل يقول: إذا تمَت إبلي كذا نحرت أول نتيج منها، وكانوا إذا أرادوا نحره زينوه وألبسوه»[٦].

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها، المستقصى ١/ ٢٦، ٢٨٩.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٢٩٧، المستقصى ١/ ٩٣٠.
(٣) ينظر المصدران نفسهما: الصفحتان نفسهما.
(٤) ينظر سورة الأنعام: الآيتين ١٣٦،١٣٧، سورة المائدة: الآية ١٠٣، سورة آل عمران: الآية ٣٥، سورة مريم: الآية ٢٦.
(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٢٥
(٦) المصدر نفسه: الصفحة نفسها. ينظر أيضا بلوغ الإرب: ٣/ ٤٠.

ويأتي المثل «أفْرَعَ بالظبْي وفي المَعْزى دَثَر»[١] على الدلالة عينها، وهي الإشارة إلى الفرع. والمثل يعطينا دليلاً على حرص الجاهليين على الإيفاء بنذورهم ولو بإبدالها بنوعية أقل قيمة من أنعامهم التي طالما نذروها لآلهتهم.

أما المثل «رُبَّ رَميةٍ مِنْ غَيرِ رَام»[٢] يكشف لنا بما لا يقبل اللبس أهمية النذور للجاهلي، وأول من قال ذلك الحكم بن عبد يغوث المنقري، وكان أرمى أهل زمانه، وآلى يمينا ليذبحنَّ مهاة على الغبغب[٣]، فلم يسعفه الحظ في يومه الأول، فعزم على قتل نفسه، إن لم يف بنذره، إلى أن أتيح له ذلك على يد ابنه[٤]، وهذا الإصرار والتحدي لعله ناجم عن خوفه من أن تصب الآلهة غضبها عليه، فضلاً عن كبريائه وعنفوانه.

في حين المثل «حَرَامَهُ يَرْكَبُ مَنْ لا حَلالَ لَهُ»[٥] يعرج على مفهوم السائبة، حيث يحرم ركوب ظهرها، فقد ذكرت الأخبار أن جبيلة بن عبد الله أخا بني قريع بن عوف أغار على إبل جرية بن عامر يوم مسلوق، فأطرد إبله غير ناقة كانت فيها مما يحرم أهل الجاهلية ركوبها، وفزع فرسه العمود فذهب، ولم يبق بحوزته سوى تلك الناقة، فقال جرية لابن أخت كان يرعى إبله: رد هذه الناقة علي لأركبها في إثر القوم، فقال له الغلام: حرام، فأطلق جرية المثل[٦]. والمفارقة تكمن في احترام الغازي والراعي لعقيدة التحريم، في حين صاحب الإبل لم يجد ضيراً من ركبها، وهو يمثل صراع العقيدة والمادة في واحدة

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٨١.
(٢) جمهرة الأمثال: ١/ ٤٩١، مجمع الأمثال: ١/ ٢٩٩، المستقصى: ٢/ ١٠٥.
(٣) الغبغب: حفرة تحت اللات توضع فيها النذور.
(٤) مجمع الأمثال: ١/ ٢٩٩
(٥) مجمع الأمثال: ١/ ١٩٨، المستقصى: ١/ ٣١١. ووردت الميم مفتوحة في حَرامه بالمصدر والحق الضم.
(٦) ينظر المصدران نفسهما: الصفحتان نفسهما.

من صوره.

والمثل «يُحْمَلُ شَنٌّ ويُفَدَى لُكَيْزٌ»[1] يحمل لونا جديدا من النذور المادية، ألا وهي الأضاحي البشرية الخالصة والمقدمة تقرباً للآلهة، والإشارة واضحة تمام الوضوح لا تحتاج إلى جهد لتفسيرها، ولاسيما أن قصة المثل تدعم كلامنا، فقد ورد فيه أن شناً ولكَيزاً ابنا افصى بن عبد القيس، وكان مع أمهما في سفر، وهي ليلى بنت قرَان بن يليَ حتى نزلت ذا طوى، فلما أرادت الرحيل فدَت لكيزاً ودعت شناً ليحملها[2]، والمثل يؤكد بما لا يقبل اللبس عظم مكانة الآلهة في نفوس الناس يومها، فلا ضير من التضحية بالأبناء طمعاً في كسب رضاها، بل يبدو لنا أنه كان هناك تنافسا خفيا للضحايا في نيل هذا الشرف.

وهكذا نسدل الستار على موضوع الدين من الأمثال الجاهلية، وقبل أن نبرح أطراف الحديث عنه، لابد من القول: إن قلة عدد الأمثال المعنية بالموضوع على الرغم من أهميته ومكانته في حياة العربي الجاهلي، فضلاً عن سهولة لغتها، وبساطة دلالاتها، غير أننا وجدنا مساحة لا بأس بها لتشكيل صورة تعكس واقع الدين في المجتمع الجاهلي، وهي صورة وإن أغفلت الأمثال بعض جزئياتها، لكنها قدمت رؤيا عنه.

المعتقد في الأمثال الجاهلية

قبل الخوض في غمار الموضوع، سنحاول تسليط الضوء على حقيقة تعلق الإنسان بصورة عامة، ولاسيما العربي في المجتمع الجاهلي بمعتقده، وقد لا نكون مجانبين للصواب إن قلنا: إن للشعوب على اختلاف ألوانها ومشاربها أوهاماً وخرافات

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٤١٣، المستقصى: ٢/ ٤١٠.

(٢) ينظر المصدران نفسهما: الصفحتان نفسهما

تجافي العقل والمنطق، لكنهما تبعثان الراحة والطمأنينة في النفوس منذ الأزل إلى يومنا هذا، على الرغم مما تحملانه من أساليب الدجل وأفعال الشعوذة، حتى أن كثيراً من أصحاب العقول النَّيِّرة من العلماء والمثقفين رسفوا في قيودها ودانوا لأقاصيصها؛ لأن النفوس وإن تباينت مستوياتها العلمية والفكرية، تظل متشابهة فيما يخص الشهوات والغرائز، ولم تنفع معها كل المعالجات عبر العصور والأزمان. ومن الطبيعي أن يكون العربي في العصر الجاهلي أكثر عرضة للوهم والخرافة بسبب ضيق أفقه الفكري، وسعة مجاهل بيئته، فضلا عن طبيعة عيشه الجماعية في إطار القبيلة، وهذا ساعد في سرعة تصديقه للخبر، وإيمانه بالاعتقاد، مما وسع من تخيلاته، وكثيراً ما تخطى حدود الجماعة في التعليل والقياس[1].

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول: إن تداول هذه المعتقدات في المجتمع الجاهلي لم يكن عامل نشر لها فحسب، بل جعلها ذات سلطان على النفوس، وسطوة على العقول، وقد تجسد المعتقد الجاهلي عن طريق قناتين رئيستين، هما الوهم والخرافة، فالوهم هو تَخَيُّل الشيء أو تَمَثُّلُهُ صدقاً كان أم كذباً[2]، أمَّا الخرافة فهي الحديث المستملح من الكذب[3]، وعليه يكون السقوط في حبائل الكذب، والوقوع في شرك الخطأ، قد مهدا الطريق للمعتقد، وأول أوهام العرب وخرافاتهم الجن، حيث ادعى كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها، ورافقوها وقاتلوها، وصادقوها وخاصموها، وتزوجوها وهجروها، وحتى أنهم نسلوا منها[4]، وقد عزا الجاحظ شيوع هذا الأمر إلى الغباء

(١) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٤٣٤-٤٣٥.
(٢) ينظر لسان العرب: مادة (وهم).
(٣) ينظر لسان العرب: مادة (خرف).
(٤) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٤٥٩-٤٨٢، المرئي واللا مرئي في الشعر العربي القديم: ٢٩٢-٣٠٩

المستشري بين أوساط العرب فما عادوا يفرقون بين الكذب والصدق، فضلا عن أن الرواية كلما كانت أكذب كانت أظرف عندهم[١]، وهو تعليل حسن الوجه، لكنه أغفل حقيقة النفس البشرية الساعية خلف الخيال، واللاهثة وراء السراب؛ لذا وجدناها تنسَلُّ بعيداً عن الحقيقة والواقع، لكونهما قيدان يكبلان حريتها، وهي الغاية المرجوة من الحياة، وبعيداً عن الخوض في الأسباب والدوافع وراء شيوع هكذا روايات، نتصفح الأمثال العربية لنجد ضالتنا في مجموعة من الأمثال عنيت بهذا الجانب، فالمثل «حَدِيثُ خُرَافَةَ»[٢]، وشبيه به المثل «أَمْحَلُ مِنْ حَدِيثِ خُرَافة»[٣]، يدور حول رجل من عُذْرَةَ اسمه خرافة، تزعم العرب أنَ الجن استهوته، فلبث فيهم زمناً، ثم رجع إلى قومه، وأخذ يحدثهم بما رأى منهم، فكذبوه حتى قالوا لما لا يمكن: حديث خرافة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: خرافة حقٌ، يعني ما تحدث به خرافة عن الجن حقٌ[٤]. وحيثيات المثل تؤكد حقيقة العلاقة ما بين الرجل والجن حتى قومه سلموا بهذا الأمر، وبدا قولهم المثل لا يحمل معنى التكذيب بل الخيال والغرابة، وهذه العلاقة الإيجابية نلمسها في المثل «أَضَلُ مِنْ سِنان»[٥]،وفي الخبر زعمت أعراب بني مرة أن سنانا لما هام بعدما عنَّفهُ قومه على جوده، إستفحلته الجن تطلب كرم نجله، فالأعراب تزعم أن الجن والإنس تتزاوج[٦].

(١) الحيوان: ٦/ ٧٩.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ١٩٥.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٦.
(٤) ينظر المصدر نفسه: ١/ ١٩٥، ٢/ ٣٢٦، لسان العرب: مادة (خرف). ولم أعثر على الحديث في مضانه.
(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٤٢٥، المستقصى: ١/ ٢١٧.
(٦) ينظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٢٥-٢٤٦.

والمثل «إنَ عليك جرشاً فتعشَهُ»[١] يضرب لمن يؤمر في الاتئاد في أمر يبادره، وقد جاء على لسان غير البشر بحسب ما ذكره أبو الدقيش في مجمع الأمثال، حيث رعى نسناسان، تعجل أحدهما الرعي، فأطلق الثاني المثل[٢]، فالخبر يتحدث عن النسناس، وهو خلق كان الناس يأكلونه فيما مضى، له عين واحدة ويد ورجل واحدة ويتكلم، وتتباين الآراء حول حقيقته، فمن الناس من جعله في عداد صنف البشر، لشبهه القريب من شكل الإنسان[٣]، وربما هذا ما جعلهم يطلقون عليه هذه التسمية، وهي تصغير لفظة إنسان، وبعضهم حسبه دابة فوضعه ضمن صنف الحيوان يصطاد ويؤكل[٤]، وجعله آخرون من الجن[٥]، ونحن نذهب باتجاه الرأي الأخير؛ لأن الصفات التي كانت هيئته عليها هي أقرب إلى الجن منها إلى الإنسان والحيوان، فضلا عن الوعيد والتهديد الذي أطلقه بعدما أخذه قوم – على حين غفلة – يؤكد حقيقة امتلاكه قوة خفية، في قوله[٦]:

يا رُبَّ يوم لو تَبعْتُماني لُمتُّما أو لتركتُماني

وإذا أمعنَا النظر في المسألة من جانب آخر، وجدنا نوعاً من الصراع الخفي بين الجن والإنس فرضته طبيعة التباين بينهما في الخلق، ويتجلى أيضا في المثل «الحُمَى أضْرعتْني لك»[٧] ويضرب هذا المثل في الذل عند الحاجة، وقصته طويلة، تدور حول رجل من

(١) المصدر نفسه: ١/ ١٢.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ١/ ١٣.
(٣) ينظر الحيوان :٦/ ١٩٤.
(٤) ينظر لسان العرب: مادة (نسس).
(٥) ينظر تاج العروس: مادة (نسس).
(٦) مجمع الأمثال: ١/ ١٣.
(٧) جمهرة الأمثال: ١/ ٣٤٨، مجمع الأمثال: ١/ ٢٠٥

كلب اسمه مرير خرج طلبا لثأر أخويه مرارة ومرة ،وكان الجن أختطفهما قرب جبل لهم، فكمن في المكان سبعة أيام لا يرى شيئا حتى كان اليوم الثامن، فإذا هو بظليم، فرماه وأصابه، ودارت منافرة بينه والجني صاحب الظليم، وأصابت مريراً حمى فغلبته عيناه، فاحتمله الجنيُ، وقال له: ما أنامك وقد كنت حذراً؟ فأطلق المثل، ونستشف من قصة المثل قدرة الجن على ترويض بعض الحيوانات لتكون مطايا لها، تمتطيها في المفازات على إعتقاد الجاهلين، ومنها الظليم وهوذكر النعام.

ولا يبتعد المثل «كالأرْقم إنْ يُقْتَلْ يَنْقِمْ، وَإنْ يُتْرَكْ يَلْقِمْ»[1] عن دائرة الصراع بين الثقلين، حيث كانوا يزعمون أن الجن تطلب بثأر الجانِ، فربما مات قاتله، وربما أصابه الخبل[2]، ويمكن أن تقودنا لفظة الأرقم إلى هيئة يكون عليها الجان، وهي صنف من الحيات لونها بين السواد والحمرة، ونظرات عيناها فيها خبث ومكر، تحذر العرب قتلها لئلا تكون جاناً[3]، فيقع عليهم غضبها.

ونتيجة طبيعية لهذا الصراع لجأ الجاهليون إلى وسائل عدة لإبعاد الجن عنهم، فالمثل «ريحُ حَزَاء فالنَجاء»[4] يشير إلى نبت ذفر يُتَدخن فيه للأرواح، يشبه الكرفس، يزعمون أن الجن لا تقرب بيتا هو فيه، فضلا عن أن الناس يشربون ماءَه من الريح، ويعلق على الصبيان إذا خشي على أحدهم أن يكون فيه شيء[5]، ويبدو أن رائحته المزعجة إذا أحرق هو ما حملهم على استخدامه لتنفير الجن.

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ١٤٥.
(٢) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٣) ينظر لسان العرب: مادة (رقم).
(٤) مجمع الأمثال: ١/ ٢٨٩، المستقصى: ٢/ ١٠٧.
(٥) ينظر لسان العرب: مادة (حزا).

والمثل «كالثَوْرِ يُضْرَبُ لَمَا عافَتِ البَقَرُ»[١] يضرب في عقوبة الإنسان بذنب غيره، وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش، ضربوا الثور ليقتحم الماء؛ لأن البقر تتبعه، كما تتبع الشَول الفحل، وكما تتبع أتن الوحش الحمار. لاعتقادهم أن الجن تصد البقر عن الوصول إلى الماء، وقد زعموا أن الجن تركب قرن الثور فكأنهم بضرب الثور يطردون الجن[٢]، وقريب من هذا التعليل هو ظنهم إذا البقر امتنعت من شرب الماء لا تضرب لأنها ذات لبن، وإنما يضرب الثور لتفزع هي فتشرب[٣]، ويبدو أنه الرأي الأقرب للمنطق.

ومن المعتقدات الجاهلية الحسد وغالباً ما يكون عن طريق إصابة العين، وإن كان الإسلام أقر بالحسد والرقية منه[٤]، إلا أننا نجد الجاهليين قد سلكوا سبيل الوقاية من العين بالرقية منذ زمن ليس بالقريب، وبأساليب مختلفة وطرق متنوعة، ففي المثل «عِنْدَهُ مِنَ المالِ عَائِرَةُ عَيْنٍ»[٥]، ويضرب لكثرة المال، وهنا نجد العرب تحترز من الحسد سلفا، فإذا بلغت إبل الرجل ألفاً فقأ عين إحداها؛ دفعاً لعين الكمال[٦]، وعلى الرغم من رمزية الفعل، إلا أن ذلك يكشف لنا مستوى الخوف لديهم من حسد الناس، وما قد يترتب عليه من نقص خيراتهم وشح رزقهم وهي شريان الحياة ليس على الصعيد الشخصي فحسب، بل على المستوى القبلي أيضا.

(١) مجمع الأمثال :٢/ ١٤٢، المستقصى: ٢/ ٢٠٤.
(٢) ينظر الحيوان :١/ ١٩.
(٣) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٥٠٥.
(٤) ينظر سورة (الفلق): الآية: ٥، لسان العرب: مادة (عين).
(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ٦.
(٦) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها، لسان العرب: مادة (فقأ).

والمثل «فُقْ بِلَحْمِ حِرْبَاءَ، لا بِلَحْمِ تَرْبَاءَ»[١]، لا يخرج عن دائرة طرد العين خشية الحسد، وأصل القصة أن رجلا نظر إلى آخر ينظر إلى إبله وهي تفوَق – وتفوَّق الفصيلُ وفاقَ إذا شرب ما في ضَرْع أمه – فخاف أن يصيب إبله بعينه، فتسقط فتنحر، فقال المثل، أي اجتلب لحم الحرباء لا لحوم الإبل[٢]، ونستخلص من ذلك أن العربي الجاهلي كان يلجأ إلى التشويش المتعمد في الصورة بين الإبل والحرباء، بغية تشتيت ذهن الحاسد وبالتالي نظره، وهكذا يكون قد صرف الحسد عن حلاله وماله.

وفي السياق نفسه يأتي المثل «أَكْذَبُ مِنَ السَّالِئَةِ»[٣] فقد ذُكر أن سبب نعتها بالكذب يرجع إلى أنها إذا سلأت السمن أي طبخته، كذبت مخافة العين، فتدعي أنه احترق[٤]، وهذا إسلوب آخر لدفع الحسد وإبعاد العين، فالكذب إحدى الوسائل المشروعة برأيهم في الحفاظ على الممتلكات الخاصة من عيون الحاسد.

ويعد الزجر من المعتقدات الجاهلية، وهو يعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنوائها، فتتفاءل العرب أو تتشاءم حسب وجهتها وأنواعها وألوانها، وهم ليسوا على نهج واحد في ذلك[٥]، ومما ساقته كتب الأمثال مما انصب على طائر الغراب دون سواه، فالمثل «أَبْصَرُ مِنْ غُرَابٍ»[٦]، يؤكد حقيقة حدة البصر لدى هذا الطائر؛ لذا أطلق العرب عليه الأعور لأنه مغمض أبداً إحدى عينيه مقتصر على إحداهما من قوة بصره[٧]، ويبدو أن المثل

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٧٩.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ٢/ ٨٠.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ١٦٧، المستقصى: ١/ ٢٩١.
(٤) ينظر المصدران نفسهما: الصفحتان نفسهما.
(٥) ينظر العمدة: ٢/ ٢٥٩ وما بعدها، بلوغ الإرب: ٣/ ٣١٨.
(٦) مجمع الأمثال: ١١٥، المستقصى :١/ ٢١.
(٧) ينظر المصدران نفسهما: الصفحتان نفسهما.

يأتي في إطار التفاؤل. وفي سياق التفاؤل نفسه جاء المثل «هُمْ في خيرٍ لا يَطِيرُ غُرَابُهُ»[١] ويضرب في كثرة الخصب والخير، لأن الأصل في الغراب عندهم إذا وقع في موضع لم يحتج أن يتحول إلى غيره، ويمكن أن نعزو ذلك أيضا إلى عدم مجاراته للقوم في حلهم وترحالهم فانحل عنهم السوء والنحس مادام باقياً في موضعه. ويتجسد التشاؤم في الغراب بالمثل «أَشْأَمُ مِنْ غُرابِ البَيْنِ»[٢] ولقد اقترنت لفظة البين بالغراب؛ لأن إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في موضع بيوتهم يتلمس ويتقمم، فتشاءموا به، وتطيروا منه، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا، ويبدو أن لفظة الغراب اشتقها العرب من الغربة والاغتراب والغريب لهذا السبب تشاءموا منه، والمثل «مَرَّ لَهُ غُرَابٌ شِمالٍ»[٣] ورد في التشاؤم أيضاً، ويضرب لمن لقي ما يكره؛ لأن العرب تتطير من البارح؛ لأن الطير إذا تياسرت دل تياسرها على شؤم[٤]. ويبدو أن للعرب موقفاً متشائماً من هذا الطائر، ويمكن أن نعزو ذلك إلى جدلية العلاقة بين الغراب والإنسان، فلما استعصى الأمر على هابيل ليواري جسد أخيه المقتول لم يكن بداً من الإقتداء بالغراب[٥]، فضلاً عن نعيبه المقزز، واسمه المشتق من الغربة والاغتراب والغريب وهو جُلُّ تشاءم العرب منه[٦]. وينسحب التطير على جميع الطيور دون استثناء إذا لازمت الإبل ويتجلى ذلك في قولهم المثل «أشأمُ مِنْ طَيرِ العَرَاقِيْبِ»[٧].

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٩٣.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٣٨٣، المستقصى: ١/ ١٨٣.
(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٢٢.
(٤) ينظر لسان العرب: مادة (طير)،(برح).
(٥) ينظر سورة المائدة: الآية: ٣١.
(٦) ينظر مجمع الأمثال: ١/ ٣٨٣.
(٧) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

ولم يقصر العرب الزجر على الطير فحسب بل سحبوه على الحيوان، فالمثل «مَنْ لي بالسَّانِحِ بَعْدَ البَارِحِ»[١] يضرب في اليأس عن الشيء، وفيه أن العربي الجاهلي يتفاءل بالصيد السانح، وهو ما جاء من شماله فولاه ميامنه، وتتشاءم بالبارح وهو ما جاء عن يمينه فولاه مياسره[٢]، وقصة المثل تدور حول رجل خرج للصيد فمرت به ظباء بارحة، فعزف عن صيدها، ثم مرت به ظباء سانحة، فأطلق المثل[٣].

ومن المعتقدات في العصر الجاهلي التشاؤم، وهي أسماء كره العرب تداولها ومقتوا ذكرها، لاقترانها بأحداث جرت الويلات عليهم يومها، لذلك تجد الأمثال في هذه المجموعة تبدأ بلفظة (أشأم)، لتؤكد حقيقة نذير الشؤم الذي حل بأهلها، ومنها المثل «أشأم من البَسُوسِ»[٤]، وهي بسوس بنت منقذ التميمية خالة جسَّاس بن ذهل الشيباني قاتل كليب، وباسمها اقترنت حرب دارت زمنا بين وائل وتغلب[٥]، وعلى المنوال ذاته يأتي المثل «أَشْأَمُ مِنْ خَوْنَعَة»[٦]، وخونعة هو أحد بني غفيلة دل كثيف بن عمرو التغلبي على بني الزبان الذهلي لنائرة كانت له عند عمرو بن الزبان[٧]، وليس ببعيد عن المثلين السابقين المثل «أَشْأَمُ مِنْ أَحْمَرِ عاد»[٨]، هو قدار بن سالف عاقر ناقة النبي صالح (عليه السلام)، وفي لون آخر من هذه الأمثال الباعث فيها للشؤم الحيوان

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٠١، المستقصى: ٢/ ٣٥٩.
(٢) ينظر لسان العرب: مادة (برح)، مادة (سنح).
(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٠١-٣٠٢.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٣٧٤.
(٥) ينظر كتاب حرب البسوس، أيام العرب في الجاهلية: ١١٥-١٣٦.
(٦) مجمع الأمثال: ١/ ٣٧٧.
(٧) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها وما بعدها.
(٨) المصدر نفسه: ١/ ٣٧٩.

وليس الإنسان يأتي في طليعتها المثل «أشأم من داحسٍ»[١] وهي فرس لقيس بن زهير العبسي وكانت سببا في الحرب بين عبس وذبيان دامت ما يربو عن أربعين عاما[٢]، وفي السياق نفسه المثل»أشأم من حميرة»[٣] وهي فرس شيطان بن مدلج الجشمي، كانت الدافع الرئيس في يوم بشيان لأسد وذبيان على بني جشم[٤]، والمثل «أشأم من ورقاء»[٥] ويعنون بالورقاء الناقة المشؤمة[٦]. وبعض هذه الأمثال تتضارب الأخبار حولها وتختلط أسباب قولها على الرغم من الاتفاق على صياغتها اللغوية، كالمثل «أَشْأَمُ مِنْ قاشرٍ»[٧]، وقاشر عند بعضهم فحل عند سعد بن زيد مناة بن تميم فاستطرقه قوم رجاء أن يؤنث إبلهم، فماتت الأمهات والنسل، ويقال قاشر هذا أخو زرقاء اليمامة[٨]. ولا يختلف عنه في تنوع الروايات المثل «أشأم من عطر منشم»[٩]، وفي منشم أكثر من رأي، لكن جميعها لا تخرج عن دائرة الحرب والموت الذي يسير في ركابها[١٠].

وبعد هذه الرحلة المتواضعة في موضوع المعتقد من الأمثال الجاهلية، يمكن القول إنّ العقائد الجاهلية على كثرتها وتنوعها في بيئة تجلها وتقدسها، لا تكاد تشكل شيئا بالمقارنة مع غيرها من موضوعات الأمثال الأخرى على صفحات الكتب، ومع ذلك

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٢) ينظر أيام العرب في الجاهلية :١٩٤ وما بعدها.
(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٣٨٠.
(٤) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ٣٨٥.
(٦) ينظر لسان العرب: مادة (ورق).
(٧) مجمع الأمثال: ١/ ٣٨٠.
(٨) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(٩) مجمع الأمثال: ١/ ٣٨١.
(١٠) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

استطعنا أن ندرك غايتنا في الوصول إلى حقيقة الاعتقاد عند العربي الجاهلي، والقائمة على الإيمان بالغيبيات في مطلقها الأعم.

الخاتمة

والآن، وبعد هذه الرحلة الشيقة في عالم الأمثال الجاهلية، لابد لنا من وقفة نستحضر فيها أبرز القضايا المثارة في البحث، وأهم النتائج المستخلصة من الدراسة.

ففي موضوع الدين عرضنا صورة مبسطة عن الحياة الدينية في المجتمع الجاهلي، كي نستهل بها حديثنا، وتبين لنا أن المجتمع الجاهلي يعج بعبادات مختلفة، يمكن اختزالها بمنهجين: الأول سلك التوحيد مباشرة، أما الثاني فقد اعتنق الشرك. وكان على رأس أصحاب المنهج الأول من الموحدين الأحناف، وقد ثبت لنا أنهم لم يكونوا منكفئين على أنفسهم، ولا متقوقعين في ذاتهم، بل على العكس كانوا فاعلين في مجتمع يدين بالكفر، ويؤمن بالشرك، وتجلى ذلك كله في ارتفاع نسبة الأمثال على لسانهم، فضلا عن تغلغل لغتهم إلى طبقات المجتمع المختلفة، وهو أمر يثير الدهشة، وقد لا ننكر عبث الرواة في هذا الشأن، بيد أننا يمكن أنْ نردَّ الأمر إلى حظوة الأحناف في المجتمع فمنهم سيد القوم، ومنهم الرجل الواعظ، ومنهم صاحب الرأي والمشورة. وهذا ربما يفسر قلة الأمثال ذات الصبغة التوحيدية لأصحاب الكتب السماوية الأخرى. والحال قد يكون أفضل للأمثال المعنية بالشرك، ولم تغفل الأمثال الطقوس الدينية من حج ونذور وترجمت ذلك ضمن مفاهيم العصر والمجتمع.

أمّا في موضوع المعتقد فقد قدمنا فكرة موجزة عن الاعتقاد في المجتمع الجاهلي، والأسباب التي تقف وراء انتشاره، والغايات المرجوة من اعتماده، ووجدنا أنَّ ارتباطه بعالم الغيب كان هروباً من واقع الوحدة، كالعلاقة بالجن، واتصاله بقضايا المجتمع

حفاظاً على مكتسباته المادية ،كالخوف من الحسد، ونزوعه إلى أمور نفسية خوفاً من سوء الطالع، كالتَّطيُّر والتشاؤم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- أساس البلاغة - الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ ه) - ط٢- مصر - مطبعة دار الكتب - ١٩٧٢م .

- الأصنام - ابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤ ه) - تحقيق: أحمد زكي باشا - ط١ - لبنان - دار الكتب العلمية - ٢٠١١م .

- أعلام الموقعين عن رب العالمين - إبن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر - تحقيق: عبد الرحمن الوكيل - مصر - ١٩٦٩م .

- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين (ت ٣٥٦ ه) - تحقيق: إبراهيم الأبياري - مصر - طبعة دار الشعب - ١٩٦٩م .

- الأمالي - القالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت٣٥٦ ه) - لبنان - دار الكتب العلمية - ٢٠٠٢م.

- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره - دراسة وتحقيق: د. بهجة عبد الغفور الحديثي - العراق - دار الشؤون الثقافية العامة - ١٩٩١م .

- أنساب العرب القدماء - جرجي زيدان - مصر - مطبعة الهلال - ١٩٢١م .

- أيام العرب في الجاهلية - محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي - لبنان - المكتبة العصرية - ٢٠٠٩م .

- بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب - الآلوسي: محمود شكري (ت ١٣٤٢ ه) - تحقيق: محمد بهجت الأثري - ط٣ - مصر - مطابع دار الكتاب العربي - ١٩٥٩م .

- البيان والتبيين - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) - تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ لبنان - دار الجيل - دت.

- تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي: أبو الفيض محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) - مصر - المطبعة الخيرية - ١٣٠٦ه .

- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام - د. عادل جاسم البياتي، وآخرون - العراق - مطابع التعليم العالي - ١٩٨٩م .

- تاريخ اليعقوبي - اليعقوبي: إبن واضح - تحقيق: هوتسما - النمسا - مطبعة بريل - ١٨٨٣م .

- تهذيب اللغة - الأزهري :أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ) - تحقيق: محمد علي النجار - مصر - مطابع سجل العرب - دت .

- جمهرة الأمثال - العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥ ه) - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - مصر - المؤسسة العربية الحديثة - ١٩٦٤م .

- جمهرة اللغة - إبن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن (ت هـ) - تحقيق: كرنكو - الهند - ١٩١٢م .

- الحياة العربية من الشعر الجاهلي - د. محمد أحمد الحوفي - ط٤ - مصر - مكتبة نهضة مصر ومطابعها - د ت .

- الحيوان - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) - تحقيق: عبد السلام محمد هارون - ط٢ - مصر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - ١٩٥٠م .

- ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) - تحقيق: د. محمد محمد حسين - مصر - المطبعة النموذجية - د ت .

- ديوان شعر المتلمس الضبعي - تحقيق: حسن كامل الصيرفي - مصر - الشركة المصرية

- ١٩٧٠م .

- ديوان النابغة الذبياني - تحقيق: د. شكري فيصل - ط٢ - لبنان - دار الفكر - ١٩٩٠ .

- السيرة النبوية - إبن هشام: أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨ هـ) - تحقيق: مصطفى السقا، وآخرون - ط٣ - دمشق - دار إبن كثير - ٢٠٠٥م .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا - القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) - القاهرة - المطبعة الأميرية - ١٩١٤م .

- الصحاح - الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٧ هـ) - تحقيق: أحمد عبد الغفور -ط٢ - لبنان - دار العلم للملايين - ١٩٧٩م .

- طبقات الأمم - صاعد الأندلسي: أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢ هـ)- تحقيق: حياة بو علوان - لبنان - دار مكتبة الهلال - ١٩٨٥م .

- العقد الفريد - إبن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) - تحقيق: خليل شرف الدين - دار مكتبة الهلال - ١٩٨٦م .

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) - تحقيق: محمد محيي الدين - لبنان - دار الجيل - ١٩٨١م .

- فتوح البلدان - البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ) - ط١ - مصر - المطبعة المصرية -١٩٣٢م .

- في الأدب الجاهلي - د. طه حسين - مصر - دار الكتب المصرية - ١٩٢٦م .

- في طريق الميثلوجيا عند العرب - الحوت: محمود سليم - لبنان - دار النهار - ١٩٨٣م.

- القاموس المحيط - الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) - لبنان - دار الفكر - ١٩٨٣م .

- كتاب الأمثال - السدوسي: أبي فيد مؤرج بن عمر (ت ١٩٥ هـ) - تحقيق: د. رمضان عبد التواب - مصر - المطبعة الثقافية - ١٩٧١م .

- كتاب المعارف - إبن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) - تحقيق: ثروت عكاشة - مصر - دار المعارف - ١٩٨١م .

- لسان العرب - إبن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) - لبنان - دار لسان العرب - د ت .

- مجمع الأمثال - الميداني: أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) - تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد - ط٢ - مصر - المكتبة التجارية الكبرى - ١٩٥٩م .

- المحبر - البغدادي: أبو جعفر محمد بن أمية بن عمر الهاشمي (ت هـ) - لبنان - دار الآفاق الجديدة - د ت .

- محيط المحيط - البستاني: بطرس بولس - لبنان - مكتبة لبنان - ١٩٨٣م .

- المرئي واللامرئي في الشعر العربي القديم - أ.د. عبد الرزاق خليفة محمود - سوريا - دار الينابيع - ٢٠١٠م .

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها - السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) - شرحه وضبطه - محمد أحمد جاد المولى، وآخرون - لبنان - دار الفكر - د ت .

- المستقصى في أمثال العرب - الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) - بيروت - دار الكتب العلمية - ١٩٧٧م .

- معجم البلدان - ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) - لبنان - دار صادر - ١٩٧٧م .

- معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع - البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) - تحقيق: مصطفى السقا - مصر - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -

١٩٤٥م .

– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – الطاهر: علي جواد – لبنان – دار العلم للملايين – ١٩٧٦م .

– مقايس اللغة – إبن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – لبنان – دار الفكر – ١٩٧٩م .

– نهاية الإرب في فنون الأدب – النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ) – مصر – دار الكتب المصرية – ١٩٢١م .